المعايير النصية في دلائل الإعجاز

أ. حسينة يخلف
جامعة محمد خيضر- بسكرة .

الملخص :

تعد نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني من بين النظريات اللغوية التي أعطت نفحة جديدة للدراسات اللغوية العربية؛ حيث أخرجت النحو من النظرة الشكلية إلى النظرة الوظيفية ،كما نقلت الدراسات اللغوية العربية من نحو الجملة إلى نحو النص ؛أي تحويل دراسة اللغة من بنية مغلقة إلى بنية مفتوحة ،لذا نجد في كتاب دلائل الإعجاز كل ما يتعلق بعلم اللغة النصي من مفاهيم، ومعايير نصية؛ لأجل ذلك جاءت هذه الدراسة للكشف عن المعايير النصية في دلائل الإعجاز، ونظرة عبد القاهر الجرجاني لهذه المعايير، ومدى توافق هذه النظرة مع علم اللغة النصي.

قبل التطرق إلى المعايير النصية في دلائل الإعجاز لابد من الوقوف عند ماهية نحو النص للكشف عن أسباب نشأته ومهامه ومفاهيمه والمعايير النصية المتعارف عليها عند علماء هذا العلم ومدى توافقها مع المفاهيم والمعايير النصية عند عبد القاهر الجرجاني .

أولا: ماهيـة نحـو النص:

1- مفهوم نحو النص :

يتجلى هذا المعنى في عرف الاستعمال النصوصي اللغوي، والمقصود بنحو النص « تلك القواعد اللغوية التي لا تقصد لذاتها بل التي يُدرك بها نظام اللغة والدور الذي تؤديه قوانينه في مختلف أنماط النصوص التي نستمع إليها، أو نقرأها، أو ننتجها »[1] ويعرِّفه صبحي إبراهيم الفقي بدقَّةٍ أكثر إذ يقول :

« هو ذلك الفرع من فروع علم اللغة، الذي يهتم بدراسة النص باعتباره الوحدة اللغوية الكبرى، وذلك بدراسة جوانب عديدة أهمها: الترابط النصي، أو التماسك ووسائله،

وأنواعه، والإحالة ، أو المرجعية référence وأنواعها، والسياق النصي tesctual contesct، ودور المشاركين في النص (المرسل والمستقبل)، وهذه الدراسة تتضمن النص المنطوق والمكتوب على حد سواء» [2].

يتضمن هذان التعريفان مجموعة من المفاهيم الأساسية التي يستند عليها نحو النص أهمها :

- التماسك ووسائله وأنواعه .
- الإحالة أو المرجعية وأنواعها .
- السياق النصي ودور المشاركين في النص (المرسل والمستقبل) .
- أنماط النصوص .
- إنتاج النصوص .
- النص المكتوب والنص المنطوق.

2- أسباب نشأة نحو النص:

إنَ أهم الأسباب التي جعلت اللغويون والعلماء ينتقلون من نحو الجملة إلى نحو النص، قصور نحو الجملة في الوصول للدراسة الشاملة للغة وهذا عائد لما يلي:

1- إنّ الجملة ليست كافية لكل مسائل الوصف اللغوي.

2- الدراسات اللغوية في فلك نحو الجملة أهملت الجانب الدلالي، أولم تعن به عناية كافية، كما هي الحال في المدرسة البلومفيلدية.

3- أهمل نحو الجملة السياق الاجتماعي، و هو سياق على قدر كبير من الأهمية في الدراسة اللغوية، و قد أكّد هذه الأهمية الاتجاه الوظيفي، مدرسة لندن التي يتزعمها firth [3]

4- « لا يستطيع نحو الجملة التمييز بين أنماط النصوص، حيث منها ما هو إخباري وما هو علمي، فهذا يتطلب علم آخر هو علم النصوص كما كشف عن ذلك ديبوجراند و دريسلر» [4]

5- كثير من الظواهر التركيبية لم تفسر في إطار نحو الجملة تفسيراً كافياً مقنعاً.

«على الرغم من هذه النقائص إلا أنَه لا يمكننا القول إن نحو الجملة لم تعد له قيمة، بل إن كثيراً من الظواهر التي تعالج في نحو الجملة هي محور معالجة نحو النص؛ غير أن نحو النص

يراعي في وصفه و تحليلاته عناصر أخرى لم توضع في الاعتبار من قبل، ويلجأ إلى قواعد دلالية و منطقية إلى جوار القواعد التركيبية» [5]

بالإضافة إلى سلبيات نحو الجملة التي كانت وراء نشوء علم اللغة النصي هناك مجموعة من الأسباب الأخرى هي:

6- « انفتاح الدراسات اللغوية على مختلف العلوم الإنسانية مثل: علم الاجتماع، وعلم النفس، والإعلام.

7- عندما نعتمد التحليل النصي نجد أن هناك إمكانية عالية لتأويل الأوضاع المختلفة بناء على السياق الوارد فيه.

8- العوامل الاجتماعية والنفسية أوثق علاقة بالنصوص منها بالجمل» [6]

3- مهام نحو النص :

لقد عني علم اللغة النصي، أو لسانيات النص في دراسته بظواهر تركيبية نصية مختلفة منها: « علاقات التماسك النحوي النصي، وبنية التطابق والتقابل، والتراكيب المحورية، والتراكيب المجتزأة، وحالات الحذف، والجمل المفسرة، والتحويل إلى الضمير، والتنويعات التركيبية و توزيعاتها في نصوص فردية »[7] فتجاوز نحو النص حدود الجملة في التحليل« يسمح بطرح إمكانيات متعددة للفهم ، وفضاءات أوجب للتفسير»[8]

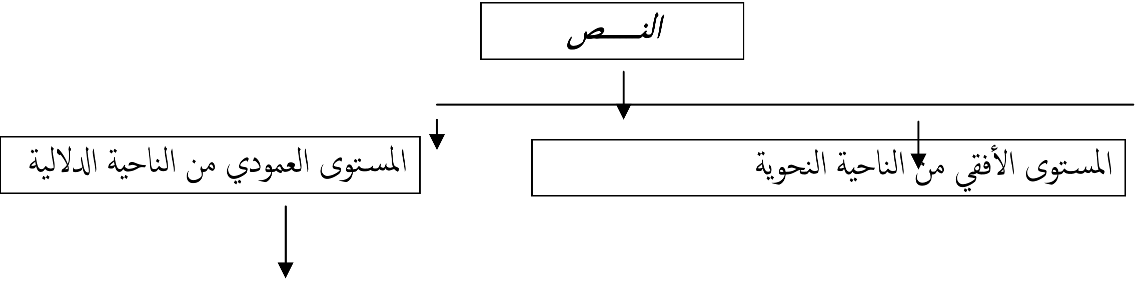
« فغاية نحو النص القصوى فهم أوجه الترابط النحوي المتجاوزة للجملة الواحدة إلى سلسلة طويلة أو قصيرة من الجمل تؤلف نصا محددًا »[9]

4- مفاهيم نحو النص :

ترتبط مفاهيم نحو النص بكلِّ ما له علاقة بالبنية الكبرى المتمثلة في النص، وتتداخل هذه المصطلحات بمصطلحات تحليل الخطاب، ولقد أسرد نعمان بوقرة مجموعة كبيرة من هذه المصطلحات في كتابه المعنون بـ "***المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب*** "ومن بين أهم هذه المصطلحات نذكر :

1- النص :

وحدة كبرى شاملة تتركب من أجزاء مختلفة تقع على مستويين يمكن تمثيلها فيما يلي:



النص يتكون من وحدات نصية صغرى تربط بينها علاقات نحوية[10]

يتكون من تصورات كلية تربط بينها علاقات التماسك الدلالية و المنطقية

« والنص مهما كان طوله، أو نوعه يأتي نتيجة لعملية تبليغية أو تعبيرية تتم في سياق محدد ورجاء تحقيق بنية محددة، وهو مع ذلك عبارة عن بناء يتضمن محتوى يتشكل من :

1- مفاهيم.

2- مفردات وتراكيب.

3- معارف» .[11]

ولقد كان « النص الأساس الذي انطلق منه العرب لدراسة اللغة، وقد نشأ عن هذا المنطلق فروعًا علمية عدة اختص كل واحد منها بجانب من الدرس اللغوي» [12] ،

2- أنماط النص :

يعدُّ النص وسيلة مهمة في التعليم لما يمنحه من مكتسبات فكرية، وثقافية، ولغوية للتلميذ؛ إلاَّ أنَّ النصوص تتفاوت في القيمة، والتأثير لذلك تتعدد تصنيفاتها، ولقد اتجهت مناهج اللغة العربية في المرحلة المتوسطة إلى تصنيف النصوص حسب المهارة النصية المراد تعليمها، ونورد أنماط النصوص التي تمَ اختيارها وأهم خصائصها فيما يلي :[13]

النمط	الخصائص
النمط الوصفي	غلبة الصفات والمشتقات
النمط السردي	بروز الزمن في الأفعال ،وتعاقب الأحداث واستخدام الروابط المعنوية والمنطقية
النمط الحجاجي	تعددالشواهد،والأمثلة،والروابط المنطقية
النمط الإخباري .	ذكر المعلومات، وتصنيفها، وتحليلها مع استخدام أدوات الربط المناسبة
النمط الحواري	بروز عناصر الدور التخاطبية ومميزاتها بين شخصين، أو جماعة،واستخدام صيغ الأفعال والضمائر المناسبة، والأسلوب الملائم.

3- فعاليـة النص :

ترك النص لانطباع قويٍّ لدى المتلقي، وخلقه شروطًا مفضلةً لبلوغ هدف ما، ولكي يكون للنص فعالية لا بدَّ من أن يرتبط بالواقع ويضم مؤشرات تأثيرية.

4- قراءة منتجة :

« هي القراءة التي تتبعها كتابة جديدة، ولا تتحقق هذه القراءة إلا باستيعاب النص ومعرفة خصائص وأنماط النصوص».[14]

5- استشهاد نصي:

« الطرق التي يستعملها الناس في الانتفاع بالنصوص المشهورة، أو في الإحالة إليها، ومن أهم الأشكال التي يتخذها هذا التفاعل بين النصوص، والتي حظيت بالدراسة الموسعة لدى علماء البلاغة والنقد العربي: المعارضات الشعرية، السرقات الشعرية، الاقتباس، التضمين» [15] .

6- تواتـــــر :

« نقصد به الحضور المكثف لظاهرة معينة في النص؛ حيث تتكررعدة مرات فتصبح هذه الظاهرة لافتة للنظر» [16] .

7- استيعاب النصوص:

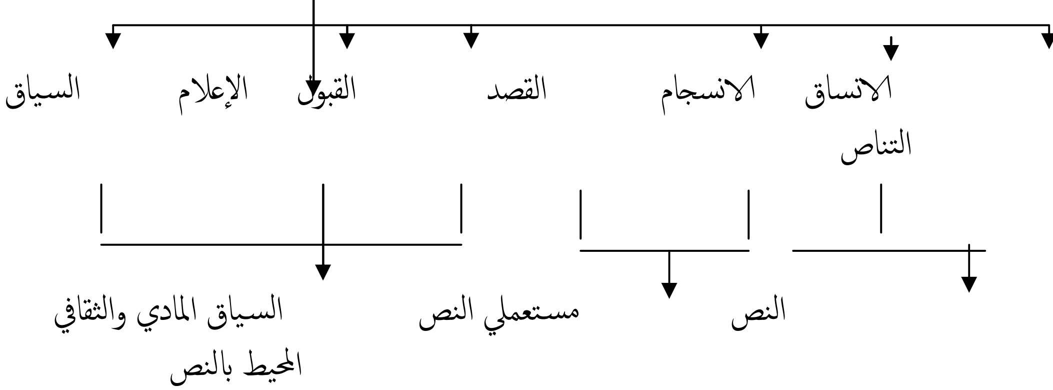
« هو نشاط إدراكي يُعرَّف بأنَّه تفاعل بين نص وقارئ، يأخذ مكانه ضمن سياق محدد، وهكذا فإن سيرورة الاستيعاب تخضع لتأثيرات متنوعة تنبثق في وقت واحد عن السياق، وعن النص نفسه، وعن خصائص القارئ» [17].

8- نوع النـــص:

« طائفة من طرق الاستكشاف لإنتاج وقائع النصوص، والتنبؤ بها، ومعالجتها؛ وهو بذلك يقوم بدور المحدد البارز للجودة، والفعالية، والملاءمة» [18]

9- النصيـة:

تمثل النصانية قواعد صياغة النص، وقد استنبط "دي بوجراند و دريسلر "سبعة معايير تحدد وتميز النصوص، وإذا غاب أحد هذه العناصر عُدَّ النص غير اتصالي، ويمكن تمثيل هذه المعايير بالمخطط التالي : [19]



ثانيا: أهم قضايا نحو النص في دلائل الإعجاز :

إن دلائل الإعجاز الذي ضمَّ أسس نظرية النظم كان بمثابة جسرٍ يوصل إلى بيان إعجاز النص القرآني؛ هذا النص المقدس الذي كان سبب نشوء معظم الدراسات اللغوية، فمبدأ عبد القاهر الجرجاني في كتابه هو مبدأ المقاربة النصية، أي محاولة الاقتراب من هذا النص القرآني، وبيان إعجازه من خلال نظمه، فكشف من خلال هذه المقاربة عن عدة قضايا أهمها:

1-النظم متوقف على التركيب النحوي :

ربط الجرجاني النظم بالتركيب النحوي إذ يقول في تعريفه للنظم : « واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشئ منها» [20]. فصحة الكلام وفساده يرجع إلى معاني النحو إذ يقول : « فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه ، إلاَّ وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله يتصف بباب من أبوابه » [21].

ولقيمة النحو في نظرية النظم ربط الجرجاني معرفته بمعرفة القرآن الكريم ومعانيه فهو

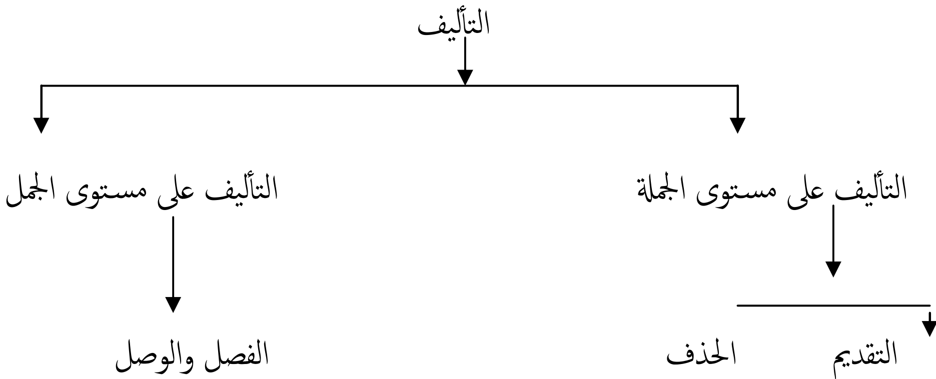
ضرورة لا بد منها لمن أراد أن يتفقه في الدين إذ يقول :

«وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له وإصغارهم أمره، وتهاونهم به فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم، وأشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله ، وعن معرفة معانيه ».[22]

لقد أخرج الجرجاني النحو من النظرة الشكلية إلى نظرة نستطيع أن نقول أنها وظيفية ، كما تطرق إلى قضية في غاية الأهمية تؤكد وجود جذور للدراسات النصية في التراث اللغوي العربي وهي قضية التأليف على مستوى الجمل ، فكيف تتم وما علاقتها بالتأليف على مستوى الجملة ؟.

2- التأليف على مستوى الجمـل :

تجاوز الجرجاني في نظريته نحو الجملة إلى نحو النص من خلال حديثه عن التأليف، هذا العنصر المهم الذي تبنى عليه نظرية النظم، ولا يقوم إلاَّ بوجود عنصر آخر هو الاختيار، ولقد أشار الجرجاني إلى أن التأليف نوعان يمكن توضيحهما فيما يلي:



والتأليف على مستوى الجمل في نظر الجرجاني « من المرتبة العليا في النظم »[23]

ويكون هذا التأليف عن طريق الفصل والوصل، وقد اصطلح البلاغيون على أن « الوصل هو العطف بين الجمل بالواو خاصة، والفصل هو ترك ذلك العطف» [24] ، وسنبين مواضع الفصل والوصل وفائدتها في المفرد وفي الجملة.

أ- فائدة العطف في المفرد و في الجملة :

تختلف فائدة العطف في المفرد عن العطف في الجملة، حيث إنَّ: « فائدة العطف في المفرد أن يشرك الثاني في إعراب الأول، وأنَّه إذا أشركه في إعرابه فقد أشركه في حكم ذلك الإعراب» [25]

أما بالنسبة إلى الجمل المعطوفة فقد ذكر الجرجاني على أنَّها ضربان :

أولها : « أن يكون للمعطوف عليها موضع من الإعراب، وإذا كانت كذلك كان حكمها حكم المفرد، إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد .

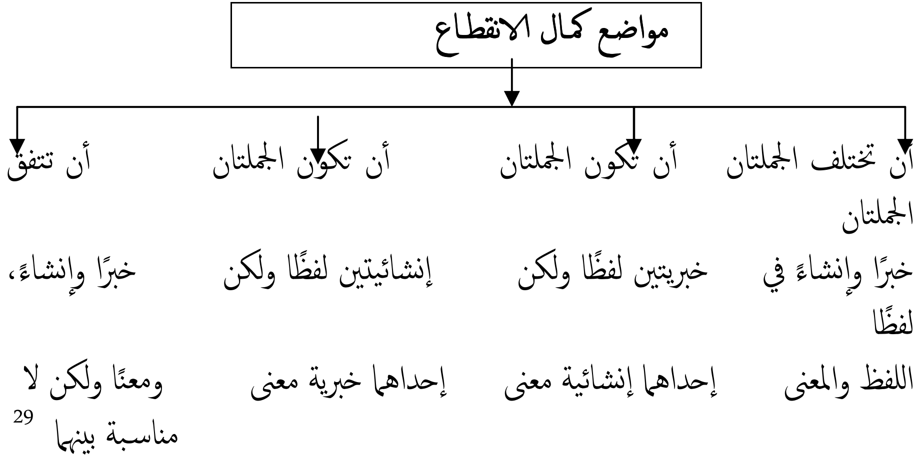
ثانيها : أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب جملة أخرى، كقولك: زيد قائم وعمرو قاعد والعلم حسن والجهل قبيح، لا سبيل لنا إلاَّ أن ندَّعي أن الواو أشركت الثانية في إعراب قد وجب للأولى بوجه من الوجوه» [26] .

بعد التطرق إلى فائدة العطف في المفرد وفائدته في الجملة سنكشف هنا عن مواضع الفصل والوصل

ب- مواضع الفصل : وتكون في موضعين :

أولاً : كمال الانقطاع مع عدم الإيهام :

« لقد أطلق البلاغيون على اجتماع جملتين إحداهما خبرية والأخرى إنشائية كمال الانقطاع، وحكموا عليها بالفصل» [27] ، وفي هذا يقول الجرجاني « ولا يعطف الخبر على الاستفهام» [28] ونبين مواضع كمال الانقطاع فيما يلي :

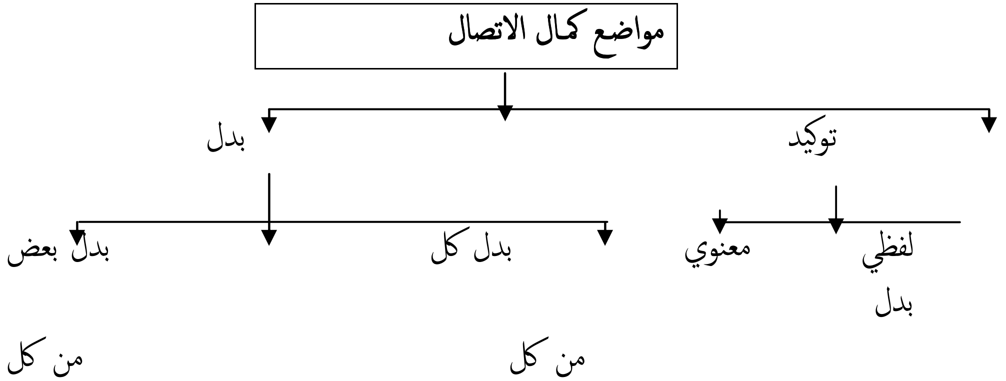


ثانيًا : كمـال الاتـصـال :

أي أنْ تكون الجملتين متصلتين ببعضهما، ولا يوجد تغاير بينهما، وكمال الاتصال يقع في المفرد كما يقع في الجمل حيث « يمتنع في المفردات أن تعطف الثاني على الأول إذا كان الثاني بدلا أو عطف بيان أو توكيدا، والأمر كذلك في الجمل» [30]. وفي معالجة الجرجاني للأصول والقوانين في فصل الجمل ووصلها توصل إلى أنَّ الجمل ثلاثة أضرب من بين تلك الأضرب :

« الجملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكد فلا يكون فيها العطف البتة لشبه العطف فيها لو عطفت بعطف الشئ على نفسه » [31]

ويمكن توضيح مواضع كمال الاتصال فيما يلي :[32]



اشتمال

ولتكتمل الرؤية سنبرز مواضع الوصل، ولكن قبل ذلك لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ الجرجاني يعالج القضايا اللغوية في ضوء نصوص قرآنية، إضافة إلى نصوص شعرية ، وما ذلك إلا مظهر من مظاهر المقاربة النصية؛ أي العودة إلى النصوص لتفسير وتوضيح الظواهر اللغوية والتركيبية .

ج- مواضع الوصـل: وهي:

أولاً: كمـال الانقطـاع مع الإيهـام : ويكون في كل جملتين بينهما كمال الانقطاع ، ولكن الفصل بينهما يوهم عكس المراد ، مثال ذلك :

سأل الصديق أبو بكر رجلا يحمل ثوبا في يده: أتبيع هذا ؟ قال الرجل: لا يرحمك الله، فقال أبو بكر :لا تقل هذا ، ولكن قل " لا و يرحمك الله " من هنا وجب الوصل دفعا للإيهام[33] .

ثانيـا : إذا كـان المخبر عنه في الجملتيـن واحـدًا :

وفي هذه الحالة يزداد معنى الجمع في الواو قوة وظهورا، ويؤكد الجرجاني هذا في قوله : « وذلك أنك إذا قلت هو يضر وينفع ، كنت قد أفدت بالواو أنك أوجبت له الفعلين جميعا وجعلته يفعلهما معا، ولو قلت يضر ينفع من غير واو لم يجب ذلك بل قد يجوز أن يكون قولك " ينفع " رجوعاً عن قولك " يضر " وإبطالاً له»[34] .

ثالثا : عطـف جمـلة على مجمـوع الجمـلتين :

يقول الجرجاني في هذه الحالة : تعطف تارة جملة على جملة وتعمد أخرى إلى جملتين أو جمل فتعطف بعضا على بعض ثم تعطف مجموع هذي على مجموع تلك ومثال ذلك : قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [35] الشرط كما لا يخفى في مجموع الجملتين لا في واحدة منهما على الانفراد [36]

3 – نظـم الكلـم ونظـم الحـروف :

لقد فرق الجرجاني بين نظم الكلم ونظم الحروف ، وهذا إن دَلَّ على شيء فإنَّما يدل على دقة النظر، وتفريقه بين لفظة داخل السياق وخارج السياق لكأنَّه بذلك ينتقل من البنية الصغرى إلى البنية الكبرى ومن البنية المغلقة إلى البنية المفتوحة، إذ يقول :

« إن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط ، فلو أنَّ واضع اللغة قد قال " ربض " مكان " ضرب " لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد وهو بهذا يشير إلى النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق ، أما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني ، وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، وكان بهذا عندهم نظيرًا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير» [37] .

ثالثا: المعايير النصية في دلائل الإعجاز:

لقد وردت معظم المعايير النصية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ويدل هذا دلالة قطعية على تجاوز الدراسة عنده البنية الصغرى إلى بنية كبرى، وإلى المقامات التخاطبية أي جعل النص ينفتح على الظروف والملابسات، التي تساعد في تكوين وتشكيل دلالته النهائية .

1- الاتســـــاق:

ورد هذا المصطلح في حديثه عن إعجاز القرآن الكريم إذ يقول: « وبهرهم أنَّهم تأملوه سوره سورة وعشرا عشرا وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور »[38].

ويعد هذا المصطلح، من بين أهم المصطلحات التي أشار إليها علماء لسانيات النص واعتبروها من بين المعايير النصية، ولكي يتم الاتساق لا بد من عدة أدوات أهمها:الإحالة، الحذف، الاستبدال، الوصل والفصل، الاتساق المعجمي، التكرير، التضام، وأشار الجرجاني إلى معظم هذه الأدوات، وسنتناول أهمها فيما يلي :

أ – الحــــــذف:

لقد خصص الجرجاني بابًا كاملاً للحذف ونكته تحدَّث فيه عن حذف المبتدأ وحذف المفعول به، وبين مواضعه وأنواعه ، ولقد مثل له الجرجاني بعدة نصوصٍ من القرآن الكريم ومن عيون الشعر العربي ، ومن بين تلك الأمثلة التي ذكرها قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلِى الظِّلِّ﴾[39]

ففي هذه الآية حُذف المفعول به في أربعة مواضع هي:

1- وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم.

2- وامرأتين تذودان غنمهما.

3- قالتا لا نسقي غنمنا .

4- فسقى لهما غنمهما [40] .

وهذا الحذف جاء لأنَّه خارج عن الغرض، وذلك أنَّه لو قيل، وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما : جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود بل من حيث هو ذود غنم

حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود لذلك كان في هذا الحذف فائدة جليلة وأنَّ الغرض لا يصح إلا على تركه [41] ، كما أنه تحدث عن أدوات أخرى منها :

ب – الفصل والوصل :

خصص الجرجاني لهذه القضية باباً كاملاً، و فصلنا القول فيها فيما سبق .

ج – التكـرار:

تحدث الجرجاني عنه إلا أنَّه لم يفصل فيه كثيرا، إذ يقول : « إن المعنى في قولك: جاءني زيد وهو يسرع على استئناف إثبات للسرعة ولم يكن ذلك في" جاءني زيد يسرع"وذلك أنَّك إذا أعدت ذكر زيد فجئت بضميره المنفصل المرفوع كان بمنزلة أن تعيد اسمه صريحا فتقول:" جاءني زيد وزيد يسرع "في أنك لا تجد سبيلا إلى أن تدخل " يسرع " في صلة المجئ وتضمه إليه في الإثبات وذلك أن إعادتك ذكر زيد لا يكون حتى تقصد استئناف الخبر عنه بأنه يسرع وحتى تبتدئ إثباتا للسرعة» [42].

ولقد ورد ذكر المصطلح في قوله:« وكذلك فعلوا في سائر الأبواب، فجعلوا لا ينظرون في الحذف والتكرار والإظهار والإضمار، والفصل والوصل، ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه، إلا نظرك فيما غيره أهم لك، بل فيما إن لم تعلمه لم يضرك...» [43]

2 – الانسجـام :

تحدث الجرجاني عن الانسجام فجاء هذا المصطلح مرادفًا لعدة مصطلحات استخدمها من بينها: التناسق، التلاؤم، النسج، التأليف، والصياغة، ويتجلى ذلك في حديثه عن الفرق بين نظم الكلم ونظم الحروف إذ يقول: « والفائدة في معرفة هذا الفرق أنَّك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل » [44].

فلا يتوقف نظم الكلم على اتساق الألفاظ والتراكيب؛ بل لا بدَّ من توفر معيار الانسجام الذي يجعل من النص لحمة واحدة، و لكي يتحقق الانسجام في النص لا بد من توفر أدوات أهمها:

أ- السيـــــاق:

لقد جاء في قوله: « فقلنا أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، و خصائص صادفوها في سياق لفظه، و بدائع راعتهم من مبادي آية ومقاطعها، ومجاري ألفاظها و مواقعها ، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عضة تنبيه و إعلام، وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان» [45] .

ولقد أشار الجرجاني إلى السياق بنوعيه السياق الداخلي والسياق الخارجي، وفي حديثه عن السياق الداخلي (اللغوي) نجده يقول: « وهل تجد أحدًا يقول: هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها، من النظم وحسن وملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها » [46] ؛ أي أنَّ اللفظة تتحدد فصاحتها من خلال علاقتها بالوحدات اللغوية الأخرى ضمن تركيب واحد، أما عن السياق الخارجي فقد أشار إليه في حديثه عن فروق الخبر ، إذ يربط الجرجاني بين حال السامع وحال الخبر، فهو « يفرق بين الخبر الابتدائي الذي ينقل إلى السامع لأوَّل مرة ، والخبر غير الابتدائي، حيث يكون السامع له معرفة بالخبر ولكنَّه متشكك في نسبته كما يوجد الخبر الإنكاري حيث إنَّ السامع يكون في حالة إنكار الخبر» [47].

ب- التأويــــل :

لقد ورد هذا المصطلح مقترنا بالتفسير في حديثه عن علم النحو ومعرفته إذ يقول: « فدعوا ذلك وانظروا في الذي اعترفتم بصحته وبالحاجة إليه، هل حصلتموه على وجهه ؟ وهل أحطتم بحقائقه ؟ وهل وفيتم كل باب منه حقه وأحكمتموه إحكامًا يؤمنكم الخطأ فيه إذا أنتم خضتم في التفسير، وتعاطيتم علم التأويل» [48]

3 - الأغـراض والمقاصد :

وهو ما يقابل القصدية في لسانيات النص، والحديث عن الأغراض والمقاصد هو حديث عن العناصر التخاطبية وبالضبط عن أهم عنصر، وهو المتكلم وتبيان دوره في العملية التواصلية إذ يقول: « فالناس يكلِّم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم

ومقصوده، فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبر من خبره و ما هو ؟ أهو أن يعلم السامع وجود المخبر به من المخبر عنه ؟ »[49].

كما تتجلي الأغراض والمقاصد في حديث الجرجاني عن اللفظ يطلق ويريد به غير ظاهر معناه كالكناية مثلاً ، وفي هذا يقول : « والمراد بالكناية ههنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وردفه مثال ذلك قولهم :" هو طويل النجاد " يريدون طويل القامة» [50].

كما يرى الجرجاني أن المزية في النظم بحسب المعاني والأغراض إذ يقول:

« اعلم أنَّ الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادًا بعدها، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها ومن حيث هي على الإطلاق ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض» [51] . فالاستعمال إذن هو الذي يحيل إلى الغرض والمقصود مع مشاركة عدة قرائن أخرى .

4- الموقفية أو المقامية :

تحدث الجرجاني عن الموقفية أو المقامية ويظهر ذلك بذكره للعناصر التخاطبية أو الموقف الكلامي من متكلم وسامع ، ولقد اهتم العلماء قبل الجرجاني بالمقامية أو الموقفية وأولوها عناية كبيرة وجاءت تحت مصطلح مقتضى الحال ، إلاَّ أنَّ الجرجاني ربطها بأمثلة تؤكد دورها فلقد وضَّح « أن المعاني القائمة في النفس أو بتعبير آخر خوالج المتكلم النفسية هي التي توجه خطاباته الوجهة المناسبة، وتتحكم فيها بأن تجعلها مناسبة لما تقتضيه الأحوال والمقامات ، وتُمكِّن المُخَاطب من التفطن لخواص تراكيبها ومواضع كلمها» [52].

فالإحساس بالموقف حزنًا كان أو فرحًا هو الذي يجعل الإنسان يتلفظ بألفاظ تكشف عن حالته، وعن ذلك الموقف، وفي هذا السياق يقول الجرجاني : « وأنَّ الكلم تترتب في النطق بحسب ترتب معانيها في النفس» [53]. وتتجلى ملامح الموقفية أو المقامية في حديث الجرجاني عن الخبر وفروعه حيث يرى أن الخبر يتأثر معناه بعاملين اثنين هما:

1-« السياق الكلامي الذي يدخل فيه الخبر فيكون نكرة أو معرفة وأنَّ الخبر يكون اسمًا

أو فعلاً.

2- الموقف والحال الذي يقال فيه الخبر حسبما تتطلبه وضعية السامع فيكون الخبر ابتدائيا أو غير ابتدائي»[54] ، فلا يمكن الوصول إلى معنى الكلام مهما كان نوعه إلاَّ بالكشف عن العناصر غير اللغوية حيث إنَّ لها دورًا كبيرًا للوصول إلى المعنى الدقيق

5 - المقبوليـــــة :

تعد المقبولية معيارًا مهمًا للكشف عن أهمية النصوص وقيمتها ، فإذا كانت المقصدية ترتبط بالمتكلم، فإنَّ المقبولية ترتبط بالسامع الذي تتعدد وتختلف قراءته باختلاف مرجعياته الثقافية، والاجتماعية، والنفسية، ولأهمية هذا العنصر أولاه الجرجاني عناية وربطه بالنظم وبأحكام النحو فقابله بعدة مصطلحات منها: الاستحسان ، الاهتزاز، الأريحية، كما ورد مصطلح " قبولاً " في قول الجرجاني : « واعلم أنَّه لا يصادف القول في هذا الباب موقعًا من السامع ، ولا يجد لديه قبولاً حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة»[55].

أما المصطلحات الأخرى فقد وردت في قوله : « فاعمد إلى ما تواصفوه بالحسن، وتشاهدوا له بالفضل ثم جعلوه كذلك من أجل النظم خصوصا دون غيره مما يستحسن له الشعر أو غير الشعر من معنى لطيف أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس أو غير ذلك مما لا يدخل في النظم وتأمَّلْه ، فإذا رأيتك قد ارتحت و اهتززت واستحسنت فانظر إلى حركات الأريحية مم كانت وعند ماذا ظهرت ؟ »[56].

ولقد مثل الجرجاني لأبيات البحتري ليكشف من خلالها عن سبب حصول هذه الأريحية أو المقبولية إذ يقول: « فإذا رأيتها قد راقتك ، وكثرت عندها ، ووجدت لها اهتزازا في نفسك فعد فانظر في السبب، واستقص في النظر، فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنَّه قدَّم وأخَّر ، وعرَّف ونكَّر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرَّر، و توخى على الجملة وجهًا من الوجوه التي يقتضيها علم النحو فأصاب في ذلك كلَّه ثم لطف موضع صوابه وأتى مأتى يوجب الفضيلة»[57]. والكلام إذا روعي فيه معاني النحو جاء مقبولاً من قبل السامع، وقبول السامع لأي نص واستحسانه له لا يكون إلاَّ بعد أن يستعين بفكره ويتدبر فيه إذ

يقول الجرجاني في حسن المزية التي تجعل النص مقبولاً لدى السامع :« أنّهَا من حيز المعاني دون الألفاظ، وأنّها ليست لك حين تسمع بأذنك، بل حين تنظر بقلبك، وتستعين بفكرك، وتعمل رويتك، وتراجع عقلك وتستنجد في الجملة فهمك» [58].

مما سبق نقول: إنَّه ليكون النص مقبولاً يجب توفر شرطين أساسيين هما:

1- مراعاة معاني النحو في نظمه .

2- مراعاة مقتضى الحال .

خاتمـــــــة :

من خلال ما تقدم يتبين أن :

* نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني هي نظرية في نحو النص لما تضمنته من قضايا تتجاوز البنية الصغرى (الجملة) إلى البنية الكبرى (النص)

* نتيجة لجعل النص ينفتح على الظروف والملابسات التي تساعد في تكوين وتشكيل دلالته النهائية فإن كتاب دلائل الإعجاز يعد نقطة التقاء عدة فروع من علم اللغة الحديث :التداولية ،نحو النص، التعليمية وغيرها.

* توافق المفاهيم والمعايير النصية في دلائل الإعجاز مع المصطلحات المعروفة في علم اللغة النصي.

* لم يكتف الجرجاني بالتنظير ووضع المصطلحات بل حاول توضيحها وشرحها من خلال عدة أمثلة سواء من القرآن الكريم أو من عيون الشعر العربي

*إن ما ينسب من مفاهيم ومعايير نصية إلى علم اللغة النصي وإلى علماء أجانب نجده مؤسس عند علمائنا العرب بدء بسيبويه .

الهوامـــــش والمراجـــــع

1 – مديرية التعليم المتوسط، مناهج السنة الأولى من التعليم المتوسط، ص39 .
2 - صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، ج1، دار قباء، القاهرة، ط1، 2000م، ص 36.
3 - ينظر، جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية و اللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ط، 1998م، ص66 ، 67 .
4 - المرجع نفسه ص 68 .
5 - سعيد حسن بحيري، علم اللغة النصي، المفاهيم و الاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة العالمية للنشر، ط1 ، 1997 م، ص 134 .
6 - خليل بن ياسر البطاشي ، الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب ، دار جرير للنشر والتوزيع ، ط1،2009 م، ص33 .
7 - سعيد حسن بحيري، المرجع نفسه ، ص135 .
8 - صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ، ص51 .
9 - إبراهيم خليل ، في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ،عمان ،ط1 ،2007 م،ص215 .
10 - نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب ، دراسة معجمية ، عالم الكتب الحديث ، جدار للكتاب العالمي ، الأردن ، ط1، 2009 م ، ص141 .
11 - بدرالدين بن تريدي، رشيدة آيت عبد السلام، دليل الأستاذ للسنة الأولى من التعليم المتوسط ، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية ، ص24 .

12- منذر عياشي، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998م، ص112.

13 - الوثيقة المرافقة لمناهج اللغة العربية للسنة الرابعة من التعليم المتوسط ، ص14 .

14 - المرجع نفسه ، ص126 ،127 .

15 - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص83 .

16 - المصدر نفسه، ص 101 .

17 - أندريه جاك ديشين ،استيعاب النصوص وتأليفها ، ترجمة هيثم لمع ، ط1 ،1991 م، ص64 .

18 - نعمان بوقرة ،المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب ، ص 144 .

19 - ينظر، المرجع نفسه، ص142 .

20 - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز في علم المعاني ، ص 50 .

21 - المصدر نفسه، ص 70.

22 - المصدر نفسه، ص 80.

23 - ينظر، أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب، القاهرة، د ط، د ت، ص173.

24- المرجع نفسه، ص173

25 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص152 .

26 - المصدر نفسه، ص 153 .

27 - أحمد درويش ، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث ، ص 178.

28 - عبد القاهر الجرجاني ، المصدر نفسه ، ص 159.

29 - ينظر، أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث ، ص179 .

30 - المرجع نفسه، ص 181.

31 - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 165 .

32 - ينظر، أحمد درويش ، المرجع نفسه ، ص 181 ،182 .
33 - ينظر، عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، ص 183.
34 - المصدر نفسه، ص 154 .
35 - سورة النساء، الآية 112.
36 - ينظر، عبد القاهر الجرجاني ،دلائل الإعجاز، ص 166، 167 .
37 - المصدر نفسه ، ص 150، 151.
38 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص 44 .
39 - سورة القصص ، الآيتين ،23 ،24 .
40 - ينظر، عبد القاهر الجرجاني، المصدر نفسه، ص116 .
41 - ينظر ، المصدر نفسه ، ص116 ، 117 .
42 - المصدر نفسه ، ص149 .
43 - المصدر نفسه، ص 87 .
44 - المصدر نفسه ، ص51 .
45- المصدر نفسه ، ص 44 .
46 - المصدر نفسه ، ص 47.
47 - أحمد شامية ، خصائص اللغة العربية والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني ، ديوان المطبوعات الجامعية، دط . دت . ص 144.
48 - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 39.
49 - المصدر نفسه، ص 339.
50 - المصدر نفسه ، ص 60.
51 - المصدر نفسه، ص 74.
52- بشير إبرير، مفهوم النص في التراث اللساني العربي ، مجلة دمشق ، المجلد 23 ، العدد الأول ، 2007 م، ص113.
53 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص54 .

54 - أحمد شامية ، خصائص اللغة العربية ، ص 145 .

55 - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 195.

56 - المصدر نفسه ، ص 72.

57 - المصدر نفسه ، ص 73.

58 - المصدر نفسه، ص 59.